الإمامة عند الخوارج بين النظرية والواقع العملي الدولة المدرارية بالمغرب الأقصى نموذجا ١٤٠ -٢٩٧هـ /٧٥٧ ــ ٩٠٩م

أ .د / حسين سيد عبد الله مراد(*)

انتشر مذهب الخوارج الصفرية في بلاد المغرب الإسلامي في أواخر المائة الأول وبداية المائة الثانية للهجرة ، بعد أن تقبل البربر عقائد هذا المذهب الذى يعد من أكثر المذاهب انتشارا بين قبائلهم ، لأنه يقوم علي عدم حصر الخلافة في بيت معين أو جنس معين، فالخلافة حق لمن تتوافر فيه الشوط وتجمع عليه الأمة(١). كما أن هذا المذهب كان يناسب الوضع الاجتماعي والسياسي للبربر، لذلك وجد الخوارج في بلاد المغرب تربة صالحة لغرس مبادئهم وصادفوا نجاحا منقطع النظير(٢).

وقد أعان علي انتشار هذا المذهب في بلاد المغرب ما كان يتسم به هذا المذهب من الميل إلي المسالمة والتسامح مع المخالفين والاعتدال ، فهو لا يرى إباحة دماء المسلمين ولا يرى أن دار المخالفين دار حرب ، ولا يري جواز سبئ النساء والذرية ، ولا يرى قتال أحد غير معسكر الخلافة(٣). كما أعان أيضا علي ذلك أن البربر لم يفهموا شيئا كثيرا من أفكار مذهب الخوارج فقد كان السؤال عديم الجدوى حول ماهية هذا المذهب ،وكل ما فهموا هو المبادئ الثورية التي نادوا بها كالدعوة إلي المساواه ورفض الظلم والثورة علي الحاكم الجائر(٤)

(*) أستاذ التاريخ الإسلامي - معهد البحوث والدراسات الأفريقية.

وقد أدى انتشار مذهب الخوارج الصفرية إلي حدوث انتفاضة البربر بقيادة ميسرة المضغرى عام ١٢٢هـ / ٧٤٠ م [٥] وضياع سلطان الخلافة فى تلك البلاد، وظهور الدول المسفلة بقيام دول بربرية علي أساس مذهبي ،فأسس بنو مدرار دولة لهم في المكان الذي أسست فيه مدينة سجلماسة علي أساس المذهب الصفري .

وارتكزت دولة بنى مدرار في قيامها علي العصبية القبلية لقبيلة مكناسة من البربر البتر تلك القبيلة التي انتهزت فرصة البعد عن القيروان مركز الخلافة في الغرب الإسلامي فأسست في واحة تافيلات في جنوب المغرب الأقصى دولة خارجية صفرية عام ١٤٠هـ / ٧٥٧ م عاصمتها مدينة سجلماسة[٦]. بالإضافة إلي العصبية القبلية ارتكزت الدولة المدرارية أيضا في قيامها علي الدعوة الدينية لمذهب الخوارج الصفرية والدعوة الدينية تزيد قوة الدولة بأكثر ما تزيدها قوة العصبية القبلية فالعصبية الدينية تذهب بالتنافس والتحاسد الذى فيه أهل العصبية [٧].

نظام الحكم والسياسة الداخلية في دولة بني مدرار:

يرى الخوارج أنه لابد من وجود إمام على رأس الحكومة يؤم المسلمين في الصلاة ويقودهم في الجهاد، وكانت للإمامة شروط لابد من توافرها في من يتولاها وهي:

١) أن الإمامة تصلح في أمناء الناس كلهم فيمن كان قائماً منهم بالكتاب والسنة عالماً بهما[٨].

٢) إن الإمامة لا تكون إلا بالانتخاب الحر الصحيح يقوم به عامة المسلمين وليس فريق منهم، ويستمر الإمام إماماً ما دام قائماً بالعدل مقيماً للشرع مبتعداً عن الخطأ والزيغ فإن حاد وجب عزله أو قتله[٩].

٣) ألا يكون للإمام عصبية تحميه ولا عشيرة تؤويه[١٠] حتى يسهل عزله إن حاد عن العدل.

٤) لا يشترط في الإمام القريشية مستندين على قول الرسول (ص) اسمعوا وأطيعوا وإن أُستعُمِل عليكم عبداً حبشيا[١١]. وقد ارتضوا الإسلام والعدل

بدلاً من العروبة والحرية، ولا سيما حين انضم إليهم الكثير من المسلمين من غير العرب، ولذلك كانت الإمامة في نظرهم حقاً شائعاً بين جميع المسلمين الأحرار أو الإرقاء على السواء[١٢].

هكذا كان الخوارج يؤمنون بتلك المثل العليا في الإمامة، فهل طبق الخوارج الصفرية تلك المثل في حكم سجلماسة؟ وللإجابة على هذا السؤال لابد من استعراض نظام الحكم في هذه المدينة.

أعلن صفرية سجلماسة قيام دولتهم حين أحسوا بما لديهم من قوة تساعدهم على ذلك فقاموا فنقضوا طاعة الخلفاء[١٣]، وحملهم أبو القاسم سمكوا مقدم الصفرية في سجلماسة على مبايعة عيسى بن يزيد الأسود وطاعته[١٤] (١٤٠ – ١٥٥هـ/ ٧٥٧ – ٧٧١م) وهو من موالي العرب[١٥]. وقد تم اختيار عيسى ليكون الإمام الأول للدولة لتفقهه في الدين وشدة تعصبه للمذهب الصفري، وكان لذلك أثره في وصوله إلى كرسي الحكم[١٦]. كما أن اختيار رجل من السودان للإمامة هنا يبين اتجاه الجماعة الصفرية إلى تطبيق مبدأ اللاعنصرية للإمامة[١٧]، فالإمامة حق شائع للمسلمين كافة ما دام يتوافر في مرشحها الشروط التي يجب توافرها في الإمام.

ويرى أحد الباحثين أن اختيار عيسى للإمامة يدل على ثقل وزن العنصر السوداني ورجاحته على كافة العناصر الصفرية في سجلماسة ، لأن عيسى لا يرقى إلى منزلة أبي القاسم سمكوا من حيث السابقة في المذهب أو الأفضلية في العلم[١٨]. ومهما كان الأمر فقد راعى صفرية سجلماسة تعاليم المذهب في تولية عيسى للإمامة فهو من علماء الدين، كما أنه انتخب انتخاباً حراً صحيحاً، فقد بايعه أبو القاسم مقدم المذهب ثم بايعته كافة العناصر الصفرية في سجلماسة[١٩]، كما أنه لم تكن له عصبة تحميه، فقد كانت قبيلة مكناسة من أكبر العصبيات وأقواها في سجلماسة، كما كان انتخاب عيسى بن يزيد تنفيذاً لتعاليم المذهب التي تقوم على مبدأ المساواة وعلى حق المسلمين في اختيار الإمام الصالح[٢٠].

وفور تولي عيسى إمامة الصفرية بدأ في بناء مدينة سجلماسة عام ١٤٠هـ/٧٥٧م[٢١] والـراجح أنه خلال فترة حكمه التي طالت إلى خمسة عشر عاماً قد تم بناءها واحاطتها بالأسوار، فكثر سكان المدينة وانتشر العمران بها. وقام عيسى بتقسيم المياه بين الناس وصرف إلى كل ناحية من المدينة حقها في هذه المياه[٢٢]، كم اهتم بالزراعة خاصة زراعة النخيل الذي عمل على الاستنكار منه[٢٣].

وانصرف عيسى بعد ذلك بمساعدة زعماء الصفرية إلى تثبيت دعائم الدولة، فنظم الحكومة والإدارة، واستعان هو وبنو مدرار بمن عاونهم في الحكم، ولكنهم لم يطلقوا عليهم لقب وزير[٢٤].

ولما كان أبو القاسم سمكوا مقدم الصفرية هو الذي حمل قومه على مبايعة عيسى بن يزيد الأسود[٢٥] فمن المرجح أن يكون هو الموجه لسياسة عيسى الداخلية لأن الأخير كان مديناً لأبي القاسم بعرشه.

استمر عيسى بن يزيد بحكم خمسة عشر عاماً ثم عزل بطريقة مهينة في عام ١٥٥هـ/٧٧١م ، وترى بعض المصادر الإسلامية أن الصفرية في سجلماسة سخطوا على أميرهم ونقموا عليه كثيراً من أحواله، فشدوه وثاقاً ووضعوه على قمة جبل حتى هلك[٢٦]. ويروي البكري أن سبب عزله أن أبا الخطاب أشار يوماً لأصحابه في مجلس عيسى إلى أن السودان كلهم سراق حتى هذا، وأشار إلى عيسى فأخذوه وقتلوه[٢٧]. ولو كان البكري يقصد أبا الخطاب المعافري الأباضي فتكون الرواية غير صحيحة، لأن أبا الخطاب تولى الإمامة عام ١٤٠هـ/٧٥٧م وقتل على يد مجمد بن الأشعث عام ١٤٤هـ/٧٦١م[٢٨]، أما عيسى فقد قتل عام ١٥٥هـ/٧٧٢م[٢٩]، كما أن أبا الخطاب إباضي، فكيف يطيع له الصفرية وزعيمهم أبو القاسم موجود؟ ولذلك فمن المرجح أن يكون أبو الخطاب المشار إليه هو أبو القاسم سمكوا فهو صاحب الكلمة المسموعة في الدولة، فهو الذي أشار عليهم بمبايعته، ثم أشار عليهم بالتخلص منه، كما أنهم حين تخلصوا منه اجتمعوا على أبي القاسم وولوه الإمامة[٣٠].

ويرى أحد الباحثين أن أبا الخطاب الذي يقصده البكري ليس أبا الخطاب الإباضي وإنما هو أبو الخطاب محمد بن على الكندي أحد الفقهاء الذي كان من أهل إفريقية وروى عن مالك والليث بن سعد وروى عنه البهلول بن راشد، وكان أبو الخطاب هذا يدين بمذهب الصفرية، والفترة الزمنية التي عاش فيها عيسى هي نفس الفترة التي عاشها أبو الخطاب الكندي[٣١]، واية كان الأمر فلم تحدد الروايات الأسباب التي أدت إلى مقتل عيسى بن يزيد الأسود. فهل حاد عن تعاليم المذهب فوجب قتله؟ إذ أنهم يرون قتل الإمام إذا حاد عن العدل، أو أنه استبد بالأمر وحده دون رؤساء الصفرية في سجلماسة، هل كان سَّراقاً كما أشار البكري في روايته؟ أو أنه كان هناك نزاع على السلطة بين الرؤساء المكناسيين جعلهم يتراجعون في أن يكون رجل الدولة ليس واحداً منهم[٣٢]، وحين انتهى هذا النزاع تخلصوا منه، أى أن العنصر المكناسي أدرك رجحان كفته على بقية عناصر الدولة فكان من الطبيعي أن يرأس الدولة؟

كل تلك الاسئلة تطرح نفسها في محاولة للكشف عن الأسباب التي أدت إلى مقتل عيسى بن يزيد الأسود لأن المصادر لم تكشف لنا عما ارتكبه من سلوك أدى إلى هذه النتيجة، وهل هذا السلوك أو تلك المخالفات التي ارتكبها عيسى استحق عليها هذه النهاية القاسية؟ ولا شك أن ما فعلوه مع أميرهم الأول يوضح أنهم كانوا شديدي التطرف، فقد قتلوه بطريقة قاسية[٣٣].

وهكذا تخلصت القبائل الصفرية في سجلماسة من الإمام الأول السوداني الأصل الذي لم تكن له عصبية تحميه ،وتوارث الإمامة بني واسول المدراريين وهذا يعني أن الجماعات الخارجية لم تستطيع الخروج على الأصول التي أصبحت تقليدية في اختيار الإمام[٣٤]، وهي أن الحكم لابد أن يكون في أسرة معينة لها عصبية قبلية كبيرة يتوارث أفرادها الحكم.

تولى أبو القاسم بعد مقتل عيسى رئاسة الدولة عام ١٥٥هـ/٧٧١م وتوافرت فيه بعض الشروط الواجب توافرها فيمن يتولى منصب الإمامة، فقد كان عالماً

بالكتاب والسنة لأنه نشأ في بيت دين وعلم، إذ كان أبوه من حملة العلم، ارتحل إلى المدينة وأدرك التابعين وأخذ عن عكرمة مولى ابن عباس[٣٥]، ولذلك كان أبو القاسم من الفقهاء وأعلام البربر[٣٦]. ومن ثم انتخب بإجماع الصفرية في سجلماسة، لأنه كان مقدماً في المذهب الصفري الذي تلقاه على يد عكرمة مولى بن عباس[٣٧] وقام بنشره بين قومه وبين الجماعات السودانية التي كانت تأتي إلى سجلماسة، ولكن الشرط الخاص بأن الإمام يجب ألا تكون له عصبية تحميه او عشيرة تؤويه، لم يكن متوافراً في أبي القاسم، لأن قبيلته مكناسة كانت من أكبر العصبيات القبلية في سجلماسة.

وقد قام أبو القاسم في خلال فترة حكمه للدولة بتدعيم النظام الإداري والمالي للدولة حتى استطاعت الدولة في عهده أن توفر الأمن للناس وتفرض سلطتها عليهم ، فسجلماسة تدين بازدهارها إلى أبي القاسم الذي لجأ إلى تدعيم دولته بالاهتمام بالنواحي الاقتصادية للبلاد فاهتم بالتجارة، ذلك أن موقع سجلماسة أتاح لها السيطرة على طرق التجارة بين بلاد المغرب وبلاد السودان الغربي، إذ كان التجار يسيرون من سجلماسة إلى غانة محملين بالبضائع والأمتعة ويعودون محملين بالذهب[٣٨]. كما أهتم بالزراعة التي تدين بازدهارها إلى نهر زيز الذي ينبع من جبال الأطلس ويجري نحو الجنوب ويدخل في أراض سجلماسة ويمر بين أراضيها الزراعية[٣٩].

وظل أبو القاسم يحكم حتى توفى عام ١٦٨هـ/٧٨٣م فكانت ولايته ثلاثة عشر سنة[٤٠]، ويرى البعض أنه توفى عام ١٦٧هـ/٧٨٢م وكانت إمامته عشر سنوات[٤١]، والبعض الآخر يرى أنه توفى عام ١٦٧هـ/٧٨٢ وكانت إمامته عشر سنوات[٤٢].

تولى حكم سجلماسة بعد وفاة أبي القاسم ابنه الياس الملقب بأبي الوزير (١٦٨-١٧٤هـ/ ٧٨٣-٧٩٠م) [٤٣] أي أن الحكم أصبح وراثياً في أسرة أبي القاسم، فلم يعد هناك تطابق بين المثل العليا التي تؤمن بها جماعة الخوارج في سجلماسة وبين واقع حياتها العملية. فقد أصبحت الإمامة وراثية في أسرة أبي القاسم بعد انتخاب بربر مكناسة لهم[٤٤]. ويمكن القول أنه انتخاب صوري فالإمام يرشح خليفته ثم ينتخبه

شيوخ المذهب ثم ينتخبه عامة الشعب ، وبذلك فإنهم لم يراعوا تعاليم المذهب في اختيار الإمام ولم يلتزموا بالشروط التي وضعوها.

لم توضح لنا المصادر الأعمال التي قام بها الياس الملقب بأبي الوزير ولا سياسته الداخلية، ولكنه كان قد ورث دولة استقرت أوضاعها بفضل جهود أبيه وما قام به من أعمال حتى يمكن القول أن سياسته الداخلية كانت استمراراً لسياسة أبيه.

تعرض الياس لمؤامرة قام بها أخوة اليسع الأول الذي نجح في اقصائه من الإمامة[٤٥]، وبذلك سادت البلاد فتن داخلية كان لها تأثير كبير على أحوالها الداخلية وخاصة النواحي الاقتصادية التي لا تزدهر إلا إذا انعمت الدولة بالأمن والاستقرار، وتتدهور إذا سادت الفتن والمؤامرات.

قام اليسع الأول على أخيه عام ١٧٤هـ/٧٩٠م وعزله عن الحكم[٤٦]، وهذا يدل على أن هؤلاء الخوارج أصحاب النظرية المثالية في اختيار الإمام لم يكن من المنتظر أن يعيشوا بعيداً عن روح العصر، فلم يلتزموا بتعاليم المذهب وشرائعه بعد حكم مؤسس الدولة، وصارت المؤامرة طريقاً للوصول إلى الحكم بدلاً من الانتخاب الذي يقول به مذهب الخوارج الصفرية.

ولكن هل قام اليسع الأول على أخيه الياس وعزله عن العرش طمعاً في الحكم؟ أم أن الياس كان غير كفئ للقيام بأمور المنصب الذي تولاه، ولذلك عزله أخوه بمساعدة شيوخ الصفرية، إذ أنهم يرون عزل الإمام الغير قادر على إدارة شئون الأمة[٤٧] تلك تساؤلات تطرح نفسها لمحاولة الكشف عن أسباب المؤامرة التي دبرت لعزل الياس عن العرش ولم تكشف عنها المصادر ومهما كان الأمر فقد تولى اليسع بن أبي القاسم الحكم في سجلماسة بعد أن قام بانقلاب على أخيه استطاع من خلاله أن يصل إلى إمامة الدولة. وتلقب بأبي منصور وحكم في الفترة من (١٧٤- ٢٠٨هـ / ٧٩٠-٨٢٣م).

وقد تحسنت الأحوال بتولى اليسع الأول شئون الحكم إذ كان حاكماً ممتازاً من طراز نادر عمل بكل ما في وسعه على المحافظة على كيان دولته. وحرص على

فرض هيبة الدولة على جيرانها، وقام بإصلاحات عديدة وتصدى لمشاكل كثيرة دون خوف وتغلب عليها جميعاً حتى أصبح من أعظم حكام سجلماسة، واستفحل في عهده ملك بني مدرار[٤٨]. ويعود ذلك ايضاً إلى ما قام به اليسع الأول من إصلاحات عديدة في هذه المدينة إذ زاد في عمرانها وأعاد توزيع القبائل على خططها[٥٠]، مما جعل سجلماسة تضارع مدن الشرق والغرب، وأصبحت بحق عاصمة الجنوب، وقد تمت هذه الأعمال العمرانية[٥٠] بمشاركة الأندلسيين من أهل قرطبة الذين كانوا قد فروا من بلادهم إلى سجلماسة عقب عدة اضطرابات حدثت في ربض قرطبة مثل ثورة (٢٠٢هـ/٨١٥م)[٥١].

وقد اعطى اليسع الاهتمام الأكبر للنهوض بالنواحي الاقتصادية كالزراعة والتجارة والصناعة التي أنشأ لها العديد من المصانع[٥٢] كما أهتم بتدعيم الجيش حتى أصبح يملك جيشاً عظيماً امتاز بكثرة الجنود[٥٣] وأستغل هذا الجيش في إظهار مذهب الصفرية وقاتل في سبيل نشره[٥٤]. ولم يستخدم ايسع الطرق السلمية لنشر المذهب كما فعل أبو القاسم سمكوا حين نشر المذهب بين قومه وجماعات التجار السودانية، فقد استخدم السلاح لنشر هذا المذهب حتى وصف بأنه جباراً عنيداً فظاً غليظاً[٥٥]. كما استخدم الجيش في توسيع حدود دولته فظفر بمن عانده من البربر[٥٦]، ودوخ بلاد الصحراء[٥٧] وما فيها من قبائل، وخاصة قبائل مصمودة ومشكورة ووريكة في الغرب ولمطة وصنهاجة في الجنوب[٥٨]، كما سيطر على مدينة درعة[٥٩] وأخذ خمس معادنها[٦٠]. وبذلك اتسعت رقعة الدولة في زمن اليسع الأول حتى اشتملت على مناطق سجلماسة ودرعة وأصبحت حدودها الشمالية تبتدئ من جنوب جبال الأطلس الكبير في جنوبي المغرب الأقصى وتمتد جنوباً إلى قلب الصحراء[٦١].

وكما اتجه اليسع الأول إلى استخدام القوة مع من عانده من قبائل البربر لتحقيق الأمن والاستقرار لدولته، اتجه إلى أسلوب التحالف مع دولة بني رستم الخارجية الإباضية، فقد زوج ابنه مدرار من أروي ابنة عبد الرحمن بن رستم صاحب

تاهرت[٦٢] وذلك من أجل تدعيم حدوده الشرقية والوقوف سوياً ضد العدو المشترك لهما وهو الأغالبة في إفريقية.

لقد كان اليسع رجلاً موهوباً جمع صفات كثيرة كالسيادة والحزم والسياسة والكياسة وبعد الهمة وحسن التدبير، وكان لجهوده أثر في تدعيم الدولة وازدهار اقتصادها فنعمت سجلماسة في أثناء حكمه بالرخاء والغنى، ولذلك يعد من أعظم حكام بني مدرار لما قام به من أعمال جليلة.

تولى مدرار الحكم خلفاً لأبيه اليسع ولقب بالمنتصر (٢٠٨-٢٥٣هـ / ٨٢٣-٨٦٧م)، وشهد حكمه فتناً داخلية وصراعاً بين ولديه اللذين طمعا في الوصول إلى كرسي الحكم، ويرجع إلى أن مدراراً كان قد تزوج من أروي ابنة عبد الرحمن بن رستم[٦٣] وأنجب منها ميمون، كما كان له ولد آخر من زوجة أخرى اسمها تقية اسمه ميمون ايضاً. وقد تنازع الإخوان في الوصول إلى الحكم خلفاً لأبيهما في السنوات الثلاثة الأخيرة من حكم مدرار[٦٤] الذي انحاز إلى ابن أروي الذي تغلب على أخيه وأخرجه من سجلماسة[٦٥].

تولى ميمون بن أروي الحكم عام ٢٥٣ه/٨٦٧م وخلع أبوه له نفسه، ولكن أهل سجلماسة ثاروا عليه وعزلوه[٦٦] لأنه أساء السيرة في الرعية واستبد بالأمور[٦٧]، كما أن زعماء الصفرية استعظموا الأمر خوفاً من انضمام ملكهم إلى ملك بني رستم وسيادة الأباضية عليهم[٦٨]، كما أن تنازل مدرار عن الحكم لأبنه أغضب شيوخ الصفرية لأنه بهذا انتهك تعاليم المذهب[٦٩] بتنازله عن الحكم لأبنه، فعلى الرغم من أن اختيار الإمام يتم بطريقة صورية إلا أن مدراراً تجاهل شيوخ المذهب على ما يبدو في تنصيب ابن أروي إماماً، كما لا يستبعد أن يكون ميمون بن تقية قد أوعز لرؤساء الصفرية بمساندته مشيراً لهم بأن ابن أروي جده هو عبد الرحمن بن رستم مؤسس دولة بني رستم الإباضية في تاهرت، ولذلك عزلوه عام ٢٥٣هـ/٨٦٧م. وتدافع أحد كتب الإباضية عن ميمون بن أروي فترى أن أباه اختاره لحكم الدولة لكفاءته واقتداره، وتهاجم ميموناً ابن تقية وترى أنه كان ابناً غير شرعي[٧٠].

ومهما كان الأمر فقد أعاد زعماء الصفرية مدراراً إلى الحكم[٧١] وفر ابن اروي إلى درعة، ولكن وصل إلى سمع أهل سجلماسة أن مدراراً استدعى ابن أروي فيمن أطاعه من درعه ليوليه الأمر، فاتجهوا إلى مدرار وعزموا على عزله، فحاصروه في قصره ثم خلعوه وولوا عليهم ميمون بن تقية[٧٢]، وفي هذا فإننا لا نستبعد أن يكون لابن أروي قوة داخلية مناصرة له ضغط بها على أبيه.

ولكن ما هو موقف دولة بني رستم من ذلك النزاع؟ هل وقفت موقف المتفرج؟ أو هل اعانت ابن أروي في محاولته للوصول إلى العرش؟ لا تشير المصادر بأدنى إشارة تمكننا من الإجابة على هذه التساؤلات، ولكن فيما يبدو لم تتدخل الدولة الرستمية في الصراع الدائر في سجلماسة على الحكم حرصاً على علاقة الود وحسن الجوار التي كانت تربطها مع دولة بني مدرار. ويعتبر مدرار المسئول عما حدث من فتن واضطرابات داخلية في أواخر حكمه حين أقدم على عزل نفسه وتوليه أحد أبنائه الحكم في حياته.

جنى مدرار ثمار جهود أبيه اليسع الأول في الداخل وفي الخارج وتنقسم فترة حكم مدرار التي طالت ووصلت إلى خمس وأربعين سنة إلى فترتين:

الفترة الأولى: وهي فترة استقرار داخلي وتمتد من بداية حكمه حتى بداية النزاع على العرش بين ولديه وهي تبدأ من عام ٢٠٨هـ/٨٢٣م إلى أواخر عام ٢٤٩هـ/٨٦٣م وأوائل عام ٢٥٠هـ/٨٦٤م تقريباً لأن ابن خلدون[٧٣] يرى أن النزاع بين ولديه قد استمر ثلاثة سنوات وانتهى بعزل مدرار عن الحكم عام ٢٥٣هـ/٨٦٧م, وفي الفترة الأولى واصلت سجلماسة عهد الرقي والازدهار[٧٤]. ذلك أن مدرارا كان قد ورث دولة مستقرة الأوضاع كما أنه بذل جهده للنهوض بالنواحي الاقتصادية كما أنه حافظ على حدود مملكته فحكم درعة الغنية بمناجم الفضة وكانت على طريق تجارة القوافل عبر الصحراء، وكانت سجلماسة الحد الشمالي وأودغست الحد الجنوبي لتلك التجارة[٧٥].

أما الفترة الثانية فإنها تبدأ من بداية النزاع أي في اواخر عام ٢٤٩هـ/٨٦٣م وأوائل عام ٢٥٠هـ/٨٦٤م حين سيطر ميمون بن تقية على الحكم عام ٢٥٣هـ/٨٦٧م، وتميزت هذه الفترة بالاضطرابات الداخلية التي كان لها أكبر الأثر على الدولة واستقرارها، وبالتالي أثرت على النواحي الاقتصادية حتى وصف مدرار في تلك الفترة بأنه كان خاملاً غير قادر على ضبط أبنائه المتنافسين الطامعين في الحكم[٧٦].

ثم تولى الحكم في سجلماسة ميمون بن تقية بعد أن نجح في عزل أبيه[٧٧] (٢٥٣-٢٦٣هـ/ ٨٦٧-٨٧٦م)، وفي دولته مات أبوه مدرار عام ٢٥٣هـ/٨٦٧م[٧٨]، ولا تمدنا المصادر بأخبار عن حكم ميمون بن تقية ، إلا ابن خلدون يقول: «أنه استبد بالأمر إلى أن هلك[٧٩]». وهذا يعني أنه حين وصل إلى الحكم اضطر إلى استعمال الشدة والقسوة في القضاء على أنصار أخيه من الصفرية أو الإباضية فلم يكن يستطيع التهاون مع هؤلاء وإلا لضاعت دولته، ولذلك يمكن القول أنه انشغل في تدعيم دولته واستبد بالأمر وحده، وقضى على المعارضين له، ولذلك ليس في فترة حكمه ما يذكر من أعمال قام بها إلا الجهود التي بذلها لتدعيم حكمه والانفراد بحكم الدولة وحده.

وقد تخلصت الدولة من مشاكلها الداخلية عندما تولى بعد ميمون بن تقية ابنه محمد (٢٦٣-٢٧٠هـ/٨٧٦-٨٨٣م) [٨٠]. فقد انتهت الفتن التي سادت أواخر حكم جده وأغلب سنوات حكم أبيه، وساد الأمن والهدوء في سائر ربوع الدولة، يؤكد ذلك اتجاهه إلى غزو بلاد الجنوب[٨١]، وقد يكون المقصود بذلك غزو درعة التي من المحتمل أن تكون قد انفصلت عن الدولة أثناء فترة الاضطرابات الداخلية، كما أنه ملك مدينة تابلبالت وهي بلدة في إقليم تافيلالت[٨٢].

وقد خلف محمد بن ميمون في الحكم أخوة اليسع الثاني الملقب بالمنتصر[٨٣] (٢٧٠-٢٩٧هـ/ ٨٨٣-٩٠٩م) الذي ازدهرت أحوال الدولة في عهده، فقد أحسن السيرة[٨٤] وعمل على الاهتمام باقتصاديات البلاد فساد الرخاء في كافة ربوع الدولة، وليس أدل على هدوء الأوضاع الداخلية واستقرارها من أنه أعد الجيوش

وعزم على غزو مطغرة[٨٥] التي كانت على المذهب الخارجي الصفري، وكان من البديهي على اليسع الثاني أن يسعى إلى ضم صفرية مطغرة لدولته ويوحد صفرية المغرب الأقصى تحت لوائه، وجدير بالذكر أن مطغرة إذ ذاك كانت تحت حكم الأدارسة الذين أسرفوا في اضطهاد الصفرية داخل دولتهم، ومن المحتمل أن يكون شيوخها قد اتصلوا بالعاهل المدراري لتحريرهم باعتباره إمام الصفرية ببلاد المغرب الأقصى[٨٦]، ولكن اليسع الثاني الذي حاول التشبه بجده اليسع الأول بما قام به من أعمال وفتوحات لم يثنه عن عزمه على غزو مطغرة إلا الغزو الفاطمي لسجلماسة الذي انهى جكم اليسع الثاني وسقوط دولة بني مدرار عام ٢٩٧هـ/ ٩٠٩م[٨٧].

الخـاتمـة

يتضح مما سبق عرضه أن خوارج سجلماسة من الصفرية أصحاب النظرية المثالية في الحكم لم يلتزموا بالفكر السياسي للخوارج، فلم يراعوا تعاليم المذهب وشرائعه بعد انتهاء حكم مؤسس الدولة. هكذا تم اقصاء القواعد النظرية لانتخاب الإمام حتى لو كانت تأخذ شكل صوري ، فبعد إمامة أبي القاسم أصبحت الإمامة وراثية في أسرته ولم يطبقوا تعاليم المذهب في اختيار الإمام إلا في انتخاب عيسى بن يزيد الأسود. والجدير بالذكر أن القتل أصبح أسلوبا للتخلص من القائم بالأمر كما حدث مع الحاكم الأول ، والعزل كما حدث مع الحاكم الثاني ، ، وأخيرا أصبح الصراع علي الحكم بين الأبناء وسيلة للوصول إلي الحكم .

وبجانب ذلك فقد أدعى بنو مدرار الإمامة والخلافة ونظروا لأنفسهم على أنهم الأئمة الحقيقيون، أما غيرهم فإنهم زائفون(٨٨). وادعاء الإمامة ليس بجديد على الخوارج الصفرية في المغرب الإسلامي، ففي ثورات الخوارج في عصر الولاة أدعى قادة الثورة أنهم خلفاء، فقد تلقب كل من ميسرة المطغري وخالد بن حميد الزناتي بلقب خليفة وبايعتهما القبائل البربرية على ذلك(٨٩). وهذا يعني عدم الاعتراف بالخلافة في المشرق، ويعزي ذلك انتشار مذهب الخوارج الذي ينادي بأن الإمامة ليست مقصورة على العرب وحدهم بل يشترك فيها المسلمون عامة على اختلاف أجناسهم.

وبالنسبة للسياسة الداخلية لبني مدرار في سجلماسة لا يسعنا إلا أن نقول أن فترة حكمهم اتسمت بالرخاء والازدهار لحسن سياسة أمرائها ورؤسائها حتى أصبحت سجلماسة مركز للخوارج الصفرية في كافة أرجاء المغرب بل في كافة أرجاء العالم الإسلامي، فدولة بني مدرار في سجلماسة هي أول دولة قامت على أساس المذهب الصفري ونجحت في ذلك كل النجاح، فكانت لها سياستها الداخلية الواضحة وكانت لها سياستها الخارجية وكانت لها قوانينها وأنظمتها، وكانت لها عاصمتها التي تم تأسيسها على يد أول حكام بني مدرار، ويعد تأسيس هذه المدينة عملاً عظيماً من أعمال هؤلاء الحكام.

هوامش البحث

(١) عن انتشار مذهب الخوارج في بلاد المغرب الإسلامي انظر ، محمود اسماعيل عبد الرازق: الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري ،دار الثقافة الدار البيضاء ١٩٧٦م ،ص ٤٢ -٥٧.

(٢) محمود اسماعيل عبد الرازق : التفسير الاجتماعي لثورات المغاربة في القرن الثاني الهجري، مقال ضمن كتاب قضايا في التاريخ الإسلامي، دار الثقافة، الدار البيضاء ١٩٨١، ص١٢٤ – ١٤٩.

(٣) ابن الخطيب : تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط ، الجزء الثالث من كتاب أعمال الأعلام ، تحقيق أحمد مختار العبادي ، ومحمد ابراهيم الكتاني ، دار الكتاب ، الدار البيضاء ١٩٦٤ م ، ص٣٧. ، الناصري : منهج المعارج لأخبار الخوارج ، مخطوطة بالهيئة المصرية العامة للكتاب ، تاريخ ٢١٤٤ ، ورقة ١٥٨،١٥٩ .

(٤) الطاهر الزاوى : تاريخ الفتح العربي لليبيا، ليبيا ١٩٧٦ ، ص١٤.

(٥) عن التورة البربرية الكبرى انظر ، حسين مؤنس : ثورات البربرفي إفريقية والأندلس، مجلة كلية الآداب ، جامعة فؤاد الأول ،مجلد ١٠ ، الجزء الأول ، مايو ١٩٤٨.

(٦) حسين سيد عبد الله مراد :دولة بني مدرار في سجلماسة بالمغرب الأقصى ،رسالة ماجستير غير منشورة ، معهد البحوث والدراسات الأفريقية ،١٩٨٦ م ، ص ٦٢.

(٧) ابن خلدون : العبر ويوان المبتدأ والخبر ،المقدمة ، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٦٦-١٩٦٨ ، ص٢٧٨.

(٨) النوبختي: فرق الشيعة، النجف، العراق، ١٩٥٩، ص٣١.

(٩) محمد أحمد أبو زهرة: المذاهب الإسلامية، القاهرة ، بون تاريخ ، ص١٠٥.

(١٠) المرجع السابق: ص١٠٦.

(١١) السلاوي: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصي، دار الكتاب ، الدار البيضاء ١٩٩٧، ج١، ص١٦٥،١٦٤.

(١٢) حسن إبراهيم حسن وآخرون: النظم الإسلامية، القاهرة، الطبعة الرابعة ،١٩٧٠، ص٢٧.

(١٣) البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، باريس، ١٨٥٧، ص١٤٩.

(١٤)السلاوي: مرجع سابق، ج١، ص١٨٠.

(١٥) ابن خلدون: مصدر سابق، ج٦، ص٢٨٧.

(١٦) يضع ماك كول تفسيراً لقبول المكناسيين لزعامة عيسى بن يزيد الأسود فيقول: أن

المكناسيين حين نزلوا سجلماسة وكان على رأسهم أبى القاسم كان عيسى هو الزعيم المحلي لسجلماسة فاضطروا إلى الخضوع لسلطته حتى إذا ما أصبحت لهم القدرة الكافية استطاعوا أن يجدوا الحجة لخلعه . هذا رأى افتراضي لأن ماك كول لم يستند على أي مصدر أو أي دليل يؤيد هذا الطرح، أنظر: ماك كول: الروايات التاريخية عن تأسيس سجلماسة وغانة، تعريب محمد الحمداواي، دار الثقافة ، الدار البيضاء، ١٣٩٥ه، ص٢٢.

(١٧) سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي، منشأة المعارف الاسكندرية١٩٧٩ ، ج٢، ص٤١٠.

(١٨) محمود إسماعيل: الخوارج، ص ١١٦ – ١١٧.

(١٩) السلاوي: مرجع سابق، ج١، ص١٨٠.

(20) Gautier ,E,F: Les passé de l ‹ Afrique du nord .,Paris,1963, P.293.

فلهوزن: الخوارج والشيعة، ترجمة عبد الرحمن بدوى،القاهرة ١٩٥٨ ، ص٣٣.

(٢١) ابن خلدون: مصدر سابق: ج٦، ص٢٦٧.

(٢٢) ابن الخطيب: مصدر سابق، ص١٣٩.

(٢٣) المصدر السابق والصفحة.

(٢٤) أحمد مختار العبادي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، دار المصري، الإسكندرية، ط ١، ١٩٦٨، ص١٤٠.

(٢٥) ابن خلدون: مصدر سابق، ج٦، ص٢٦٨.

(٢٦) ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق كولان وبروفنسال؛ دار الثقافة ، بيروت بدون تاريخ ،ج١، ص١٥٩، ابن خلدون: مصدر سابق، ج٦، ص٢٦٧.

(٢٧) المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص١٤٩.

(٢٨) أبو زكريا: السيرة وأخبار الأئمة، مخطوطة بالهيئة المصرية العامة للكتاب ،رقم ٩٠٣٠ح، ورقة ١٠.

(٢٩) ابن خلدون: مصدر سابق، ج٦، ص٢٦٧.

(٣٠) المصدر السابق: ج٦، ص٢٦٧.

(٣١) بوبة مجاني: أثر العرب اليمنية في تاريخ المغرب في القرون الثلاثة الأولي من الهجرة ، رسالة ماجستير غي منشورة ، كلية الآداب جامعة القاهرة ١٩٨٢،، ص ١٣٦-١٣٧.

(٣٢) ماك كول:مرجع سابق، ص١٨.

(33) Gautier: op. cit., P.317.

(٣٤) سعد زغلول عبد الحميد: مرجع سابق، ج٢، ص ٤١٢-٤١٣.

(٣٥) القلشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، نسخة مصورة من المطبعة الأميرية ،وزارة الثقافة والارشاد القومي ، القاهرة بدون تاريخ، ج٥، ص ١٦٥؛ السلاوي: مرجع سابق، ج١، ص١٨٠.

(٣٦) مجهول: نبذ تاريخية من أخبار البربر في القرون الوسطي نشر بروفنسال ، الرباط، ١٩٣٤م، ص٦٠.

(٣٧) المصدر السابق، ص٦٠؛ ابن خلدون: مصدر سايق، ج٦، ص ٢٦٧-٢٦٨.

(٣٨) صلاح الدين المنجد: مملكة مالي عند الجغرافيين المسلمين، بيروت، ١٩٦٣م، ص١١.

(٣٩) الحسن بن الوزان: وصف أفريقيا، الرياض ١٩٧٨ ص٦٣٠.

(٤٠) البكري: مصدر سابق، ص ١٤٩-١٥٠.

(٤١) ابن خلدون: مصدر سابق، ج٦، ص٢٦٨؛ السلاوي: مرجع سابق، ج١، ص١٨٠.

(٤٢) القلقشندي: مصدر سابق، ج٥، ص١٦٥.

(٤٣) البكري: مصدر سابق، ص١٥٠؛ ابن خلدون: مصدر سابق، ج٦، ص٢٦٨.

(44) Bel ,A: La religion Musulmane en Barbares. Paris 1938,tome1. P.167.

(٤٥) البكري: مصدر سابق، ص ١٥٠.

(٤٦) المصدر السابق، ص١٥٠؛ ابن عذاري: مصدر سابق، ج٢، ص٢١٥؛ ابن خلدون: مصدر سابق، ج٦، ص٢٦٨؛ القلقشندي: مصدر سابق، ج٥، ص٦٥.

(٤٧) فلهوزن: مرجع سابق، ص٣٣.

(٤٨) ابن خلدون: مصدر سابق، ج٦، ص٢٦٨؛ السلاوي: مرجع سابق، ج١، ص١٨١؛ النفوسى: الأزهار الرياضية في لأئمة وملوك الإباضية، ص٩٤.

(٤٩) ابن الخطيب: مصدر سابق، ص١٤٣.

(٥٠) عن جهود اليسع العمرانية انظر: تخطيط سجلماسة وتطورها العمراني، حسين مراد : مرجع سابق ص ٩٨ – ٩٩.

(٥١) سعد زغلول عبد الحميد: مرجع سابق، ج٢، ص٤١٤.

(٥٢) ابن خلدون: مصدر سابق، ج٦، ص٢٦٨؛ السلاوي: مرجع سابق، ج١، ص١٨١.

(٥٣) النفوسى: مرجع سابق، ص٩٤

(٥٤) البكري: مصدر سابق، ص ١٥٠؛ ابن الخطيب: مصدر سابق، ص١٤٣.

(٥٥) المصدر السابق، ص١٤٨؛ المصدر السابق، ص١٤٢.

(٥٦) المصدر السابق، ص١٥٠؛ ابن عذاري: مصدر سابق، ج٢١ ، ص١٥٧.

(٥٧) ابن خلدون: مصدر سابق، ج٦، ص٢٦٧.

(٥٨) حسين مؤنس :الأطلسي التاريخي للعالم الإسلامي، خريطة رقم ١٢.

(٥٩) درعة مدينة ليس عليها سور إنما هي قرى متصلة وعمارات متقاربة كثيرة الأهل بها مزارع كثيرة وهي على نهر سجلماسة النازل إليها، وعليه يزرعون الحناء والكمون والكرويا، وأهلها من أغنى الناس وأكثرهم مالاً، لأنها على الطريق الذاهب إلى غانة التي بها معدن الذهب، كما بها معدن الفضة في تازروت، ومن سجلماسة إلى درعة ٣ مراحل، وذلك مسيرة خمسة أيام أو مسيرة أربعة أيام؛ انظر المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن، ١٩٦٧، ص٢٣١؛ البكري: مصدر سابق، ص١٤٩؛ ياقوت: معجم البلدان، بيروت، ١٩٥٧، ج٣ ص١٩٢.

(٦٠) البكري: مصدر سابق، ص ١٥٠؛ ابن عذاري: مصدر سابق، ج١، ص١٥٧.

(٦١) محمد على دبوز: تاريخ المغرب الكبير، الجزائر١٩٦٣ ، ج٣، ص ٤٤٥ – ٤٤٦.

(٦٢) ابن خلدون: مصدر سابق، ج٦، ص٢٦٨؛ النفوسى: مرجع سابق، ص٩٤

(٦٣) ابن حلدون : مصدر سابق، ج٦، ص٢٦٨.

(٦٤) المصدر السابق والجزء والصفحة .

(٦٥) المصدر السابق، والجزء والصفحة .

(٦٦) البكري: مصدر سابق، ص ١٥٠؛ ابن عذاري: مصدر سابق، ج١، ص١٥٧.

(٦٧) ابن الخطيب: مصدر سابق، ص١٤٣؛ القلقشندي: مصدر سابق، ج٥، ص١٦٥؛ ابن خلدون: مصدر سابق، ج٦، ص٢٦٨.

(٦٨) النفوسى: مرجع سابق، ص٩٥.

(٦٩) محمود إسماعيل: الخوارج، ص١٢٦.

(٧٠) النفوسى: مرجع سابق، ص٩٥.

(٧١) البكري: مصدر سابق، ص ١٥٠؛ ابن عذاري: مصدر سابق، ج١، ص١٥٧؛ ابن الخطيب: مصدر سابق، ص١٤٣؛ ابن خلدون: مصدر سابق، ج٦، ص٢٦٩.

(٧٢) ابن عذاري: مصدر سابق، ج١، ص١٥٧؛ ابن خلدون: لمصدر سابق، ج٦، ص٢٦٩.

(٧٣) العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج٦، ص٢٦٨.

(٧٤) سعد زغلول عبد الحميد: مرجع سابق، ج٢، ص٢١٥.

(75) Cambridge history of Africa, Vol.2, Cambridge, 1978, P.145.

(٧٦) ماك كول: مرجع سابق، ص٣٠.

(٧٧) البكري: مصدر سابق، ص١٥٠؛ ابن عذاري: مصدر سابق، ج١، ص١٥٧؛ ابن خلدون: مصدر سابق، ج٦، ص٢٦٩.

(٧٨) البكري : مصدر سابق، ص١٥٠؛ ابن عذارى :مصدر سابق، ج١، ص١٥٧.

(٧٩) العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج٦، ص٢٦٩.

(٨٠) البكري: مصدر سابق، ص١٥٠؛ القلقشندي: مصدر سابق، ج٥، ص١٦٦.

(٨١) ابن الخطيب: مصدر سابق، ص١٤٤.

(٨٢) المصدر السابق، ص١٤٥.

(٨٣) البكري: مصدر سابق، ص١٥٠؛ ابن عذاري: مصدر سابق، ج١، ص١٥٧.

(٨٤) ابن الخطيب: مصدر سابق، ص١٤٤.

(٨٥) المصدر السابق، ص١٤٩.

(٨٦) محمود إسماعيل : الخوارج، ص١٢٧.

(٨٧) ابن الخطيب: مصدر سابق ، ص١٤٥؛ ابن خلدون: مصدر سابق ، ج٦، ص٢٦٩.

(88) Hopkins: 'Medevel Muslem Government in Barbary until the six century of Higre. London 1958, P.5.

(٨٩) حسن على حسن: تاريخ المغرب العربي في عصر الولاة، مكتبة الشباب ، القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٧٧، ص٩٨.